الشك المنهجي عند الجاحظ
من خلال كتابه الحيوان

أ. د. عبدالرحمن عطبة
قسم اللغة العربية ـ كلية الإنسانيات ـ جامعة قطر

الشك في الدراسات الغربية الحديثة :

يرى كثير من الغربيين أن الشك ، إذا قام على أصول علمية ، يمثل منهجا من مناهج البحث ، ويقررون أن مبدع هذا المنهج هو الفيلسوف الفرنسي «رينيه ديكارت» [1] . كما يعتبرون قيام هذا المنهج ملمحاً من ملامح فكرهم الغربي

وديكارت الذي يعزو إليه الغربيون إبداع هذا المنهج يضع فروقا بين الشك باعتباره لونا من ألوان المعرفة الإنسانية والشك الذي يمثل طريقة علمية من طرق البحث ، ويعلل هذا التفريق بأن الشك المعرفي موجود في جبلّة الانسان ، وأن الفلاسفة القدماء تحدثوا عنه مع تفاوت في نظرهم إليه ، ويرى أن فلاسفة اليونان من تلاميذ أفلاطون وأرسطو انقسموا حول فهمهم له إلى فريقين : أحدهما يوسع دائرته في النظر الى الأشياء ، والآخر يتجاهله وينظر إلى الأشياء نظرة يقينية ، غير أن كليهما لم يتوصل الى معرفة الشك المنهجي : « والشك الذي نشب بين تلاميذهما (أي أفلاطون وأرسطو) إنما كان مداره أن يتبينوا هل ينبغي أن توضع الأشياء كلها موضع الشك أم أن هناك أشياء يقينية ؟ وهو خلاف أفضى بالفريقين إلى ضلال بعيد ، لأن فريقا ممن ذهبوا إلى الشك قد وسعوا نطاقه وجعلوه يمتد إلى أفعال الحياة بحيث أنهم أهملوا استعمال الحيطة والتبصر في سلوكهم . أما من ناصروا مذهب اليقين فقد افترضوا أنه يعتمد على الحواس ، فاطمأنوا إليها كل الاطمئنان ، حتى إنه يقال إن إبيقور بلغت به الجرأة في أقواله أن صرّح خلافا لجميع استدلالات علماء الفلك بأن الشمس ليست أكبر حجما مما تبدو لنا [2] . أما الشك المنهجي

---

١ - رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠ م) - انظر قصة الفلسفة الحديثة ١/ ٦٢

٢ - مبادىء الفلسفة ٥٢

فهـو الأمـر الجـديد الذي اكتشفه هو ، وقد تحدث عن التجربة التي قادته إلى هذا الاكتشاف فقال : « تبين لي منذ حين أنني تلقيت ، إذ كنت ناعم الأظفار . طائفة من الآراء الخاطئة ظننتها صحيحة ، ثم وضح لي أن مابنيته بعد ذلك على مبادىء تلك حالها من الاضطراب لايمكن إلا أن يكون أمرا يُشَكُ فيه كثيراً ويُرْتاب منه ، ولذلك قررت أن أحرر نفسي جدّيًا ، مرة في حياتي ، من جميع الآراء التي آمنت بها قبلا ، وأن أبتدىء الأشياء من أسس جديدة ، إذا كنت أريد أن أقيم في العلوم قواعد وطيدة ثابتة مستقرة [٣] . »

إن الشك عند ديكارت يمثل ضابطاً يحكم معطيات العقل ويمنع من الاستسلام لمعطيات الحواس : « فائدة هذا الشك عظيمة جداً ، وإن كانت لاتظهر لنا فورا بادىء ذي بدء ، فهي تمنعنا عن اطلاق الأحكام المسبقة ، وتمهّد للفكر سبيلا إلى التحرر من الحواس » [٤] .

ونظرة ديكارت الشاكة إلى الحواس تنبع من اعتقاده بأن الحواس خادعة ، وأن الحكمة تقتضي عدم الـركـون إليهـا دائما : « إني وجدت أن الحواس خادعة في بعض الأوقات ، ومن الحكمة أن لانطمئن أبدا كل الاطمئنان إلى من يخدعنا ولو مرة واحدة » [٥] .

إن العقل عند ديكارت هو الأساس في الحكم على الأمور ، وإن الثقة به هي المحور أيضاً في كل بحث : « . . . ولكن أكثر ما أرضاني من ذلك المنهج هو ثقتي بأنني بواسطته أستعمل العقل في كل أمر ، إن لم يكن على الوجه الأكمل ، فعلى خير ما في استطاعتي على الأقل . ذلك فوق أنني كنت أشعر في تطبيق ذلك المنهج أن عقلي كان يتعود شيئاً فشيئاً على تصور ما يتصوره على وجه أشد وضوحاً وأقوى تعبيراً . [٦] . »

ونستطيع أن نقدم تلخيصاً للمبادىء التي اعتمد عليها ديكارت في رسم ملامح منهجه ، ويتمثل ، في كثير من التبسيط ، في القضايا التالية :

١ ـ الموضوعية والتحرر من تأثير الهوى والعاطفة .

٢ ـ رفض الأحكام المسبقة .

---

٣ ـ تأملات ميتافيزيقية : ص ٤٧

٤ ـ المصدر نفسه : ص ٣٣

٥ ـ المصدر نفسه : ص ٤٨

٦ ـ مقال عن المنهج : ص ١٩٦

٣ ـ عدم الثقة بمعطيات الحواس لأن الحواس قد تخدع في بعض الأحيان .

٤ ـ الثقة بالعقل والاعتماد عليه في الأحكام .

٥ ـ اعتماد الشك طريقا للوصول الى اليقين .

الشك المنهجي بين ديكارت والعلماء المسلمين :

وإذا كان الغربيون قد عَزَوْا ولادة منهج الشك إلى ديكارت واعتبروه مفخرة من مفاخرهم الفكرية ، فهل كان حكمهم هذا قائما على حقيقة لم يعرفوا غيرها ؟ أم أن هناك من سبق ديكارت إلى تقرير هذا المنهج وتحديد ملامحه ، ثم تطبيقه على الصعيد العملي ؟ وإذا وجد هذا الرجل فهل اطلعوا على ما جاء به أم لا ؟ وإذا كانوا قد اطلعوا على ذلك فلماذا تجاهلوه ؟ .

إن في تراثنا الفكرى العربي الإسلامي سوابق عديدة وواضحة كل الوضوح في استخدام الشك المنهجي طريقا من طرق البحث ، ولانجد في الغربيين ـ في مانعلم ـ من يشير إلى ذلك ، جهلا أو تجاهلا . ولن نقف لنناقش هؤلاء في ذلك لأن طبيعة البحث لاتسمح به ، ولكن الإنصاف يقتضي أن نشير إلى حقيقة لايمكن نكرانها ، وهي أن لمفكرينا سبقا في الوصول إلى الشك المنهجي ، وقد تجلّى ذلك لدى عدد من العلماء المسلمين عاشوا في فترات متباعدة ، وكلهم سابق لديكارت في الزمن ، وبالتالي كلهم سابق له في ابتكار هذا اللون من العمل العقلي ، ونذكر منهم على سبيل المثال الجاحظ وابن الهيثم وابن سينا والغزالي .

لقد تنبه كثير من الباحثين المسلمين المعاصرين الى هذه الحقيقة ، وأخذوا يجلّونها في كتاباتهم ، ولكن معظم الدراسات التي كتبت في هذا المجال كانت تنصب على فكر الإمام الغزالي [٧] . وتعقد المقارنات بين كتاباته في الشك المنهجي وماكتبه ديكارت في ذلك ، وتعتبره سابقا لديكارت في تقرير هذا المنهج ، كما تؤكد أن كتاب الغزالي (المنقذ من الضلال) بالذات يشتمل على هذا المنهج ، ويوضح ملامحه ويحدد حدوده ، ففي هذا الكتاب يشير الغزالي إلى كيفية اهتدائه إليه ، سابقاً بذلك ديكارت في حديثة عن طريقة اهتدائه إلى اكتشاف ذلك ، ومما حكاه في هذا الموضوع نستطيع أن ندرك أن بدايات ديكارت في تكوين أسس منهج الشك تشبه ، إلى حد كبير بدايات الغزالي في ذلك ـ هذا إذا صح أنه لم يكن متأثراً بالغزالي ـ فالغزالي يتحدث عن

---

٧ ـ الغزالي : محمد بن محمد (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ)

ذلك ويشير إلى أنه ، منذ صباه ، كان يعمل عقله لإدراك الحقائق : « وقد كان التعطش لدرك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمرى وريعان عمرى ، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلّتي ، وانكسرت على العقائد الموروثة ، على قرب من الصبا ، إذ رأيت صبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام وسمعت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه وينصرانه ويمجسانه [٨] .

. . . . فقلت لنفسي إنما مطلوبي بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم ماهي ؟ فظهر لي أن العلم اليقيني الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقي معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم . . . . ثم علمت أن كل ما أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لاثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني [٩] .

إن المقارنات التي عقدتها الدراسات الإسلامية بين نمطي التفكير لدى الغزالي وديكارت لتأكيد سبق الغزالي في هذا الميدان تمت عَبْرَ دراسات كثيرة وواسعة ، نجتزىء ببعض إشارات منها تلخص بإيجاز مجمل هذه الدراسات ، فالدكتور موسى الموسوي يؤكد هذا السبق ويدعمه بالنصوص ، ويخلص الى القول : « ولكن الذي ينبغي الإشارة إليه في بحثنا لهذا الموضوع هو أن الغزالي سبق ديكارات في شكه المنهجي بسبعة قرون ، وأن ديكارت استند الى برهان اليقظة والنوم وانتفاء الاطمئنان الى صحة مايرى في الموقفين لدعم نظريته ، وعلى هذا البرهان بالذات استند حجة الاسلام قبله بسبعمائة عام » [١٠] .

ويبر ز الدكتور محمود حمدي زقزوق الأهمية الفلسفية للشك المنهجي عند الرجلين وأنه كان عند كليهما طريقا من طرق الوصول إلى الحقيقة ، وأن الشك لديهما لم يكن صادرا عن إلحاد بل كان منبعه الإيمان : « . . . . فالشك بالنسبة للغزالي كانت له نفس الأهمية الفلسفية التي كانت عند ديكارات ، وقد وصف ديكارت الشك بأنه وسيلة للحصول على معرفة الحقيقة . . . . كلاهما لم يكن شكه شك زندقة » [١١] .

---

٨ ـ صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ـ ج ٢ ص ٢٠٨ وكذلك صحيح مسلم ، كتاب القدر ج ٨ ص ٥٢

٩ ـ المنقذ من الضلال : ص : ٨٩

١٠ ـ فلاسفة أوروبيون . من ديكارت الى برجسون ، ص ١٩

١١ ـ المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ، ص ٥٩

ويتضح من جميع ما ذكر أن ماجاء به ديكارت من مبادىء حول منهج الشك كان مطابقا لما جاء به من قبله الإمام الغزالي ، وقد طبق كلاهما هذا المنهج في دراساته الفكرية ، غير أن ديكارت توسع في التطبيق العملي على العلوم الطبيعية بحكم اختصاصه بها ؛ الأمر الذي لم يتح للإمام الغزالي الذي لم يكن متخصصا أصلا في العلوم التطبيقية .

وقد تنبه الدكتور محمد يس عريبي إلى سبق الفيلسوف الاسلامي ابن سينا [١٢] . للرجلين في استخدام الشك منهجا من مناهج البحث والمعرفة ، وذكر أن كتابات ابن سينا الكثيرة في ذلك مبثوثه في كتبه التالية : « الشفاء والتعليقات والمباحث الشرقية والإشارات والتنبيهات » وقرر أن ابن سينا سابق للغزالي ولديكارت وأنهما أخذا به بعد ذلك : « . . . . وقد اختطّ ابن سينا منهجا في إثباته لوحدة العقل ، وهو مايعرف بالشك المنهجي وهو الذي أخذ به الغزالي وديكارت وغيرهما في ما بعد » [١٤] .

ان الدراسات المقارنة التى اضطلع بعبء القيام بها هؤلاء العلماء المسلمون ، والتي أفاضت في الحديث عن الإمام الغزالي بشكل خاص باعتباره مبدعا لمنهج الشك وعن ابن سينا السابق له زمنا والسابق له في تقرير هذا المنهج قصّرت ـ في حدود علمنا ـ في تتبع هذا الموضوع لدى علماء آخرين استخدموا هذا المنهج عن معرفة والتزموا بحدوده في التطبيق ، ونذكر من هؤلاء اثنين من العلماء المسلمين أسبق زمنا من الغزالي وهما ابن الهيثم [١٥] . والجاحظ [١٦] . الذي سيكون الحديث عن منهج الشك لديه محور هذه الدراسة .

أما ابن الهيثم الذي كان معاصرا لابن سينا فقد اعتمد منهج الشك طريقا من طرق البحث التي تساعد على إدراك الحقائق وقد صرح بكل وضوح أن رغبته في درك الحقائق جعلته يأخذ نفسه بالشك في كثير من اعتقادات الناس وبالاعتماد على الحق لبلوغ ذلك : « إني لم أزل منذ عهد الصبا مرتابا في اعتقادات هذه الناس المختلفة وتمسك كل فريق منهم بما تعتقده ، فكنت متشككا

---

١٢ ـ ابن سينا : الحسين بن عبدالله (٤٢٨ هـ = ١٠٣٧ م)

١٣ ـ انظر علم التفسير ـ تأسيس العلوم عند العرب ، : ٢١

١٤ ـ المصدر نفسه : ٢٠

١٥ ـ ابن الهيثم : محمد بن الحسن (٣٥٤ ـ ٤٣٠ هـ = ٩٥٦ ـ ١٠٣٨ م)

١٦ ـ الجاحظ : عمرو بن بحر (١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ = ٧٨٠ ـ ٨٦٩ م)

في جميعه ، موقنا بأن الحق واحد ، وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه ، فلما كملت لإدراك الأمور العقلية انقطعت إلى طلب معدن الحق ووجهت رغبتي وحدسي إلى ادراك مابه تنكشف غيابات المتشكك المفتون [١٧] إن البدايات الفكرية التى قادت ابن الهيثم الى اكتشاف هذا المذهب تشبه البدايات الفكرية لذلك لدى الغزالي وديكارت مع سبق ابن الهيثم لهما في الزمن .

ان الشك الذي التزمه ابن الهيثم كان شكا علميا يقوم على أسس موضوعية دقيقة ومحددة ، وقد طبقه في ميدان العلم ، وبخاصة في دراساته عن البصريات التي كانت مادة كتابه « المناظر » ، فهو يؤكد أنه يعتمد على منهج الاستقراء ويتدرج في البحث واستخدام المقاييس ، وينقد المقدمات ويتحفظ على النتائج ، كما يؤكد أن هدفه هو طلب الحق واستعمال العدل والبعد عن الهوى بلوغا إلى اليقين الذي ينتفي معه أي شك . « . . . . ونبتدىء في البحث باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات ، وتميز خواص الجزئيات ، ونلتقط بالاستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار ، وماهو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الاحساس ، ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدرج والترتيب ، مع انتقاد المقدمات والتحفظ على النتائج ، ونجعل غرضنا في جميع مانستقرئه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى في سائر مانميزه وننتقده طلب الحق ، لا الميل مع الآراء ، فلعلنا ننتهي بهذا الطريق الى الحق الذي به يثلج الصدر ، ونصل بالتدرج والتلطف الى الغاية التي عندها اليقين ، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات [١٨]

وقد أشار ابن الهيثم ، بحكم دراسته العلمية التطبيقية إلى أغلاط الحواس وما ينتج عنها من تضليل للباحث قد يبعده عن بلوغ مرحلة اليقين في بحوثه : « . . . . المقدمات ملتقطة من الحواس ، والحواس غير مأمونه الغلط ، فطريق النظر معفى الأثر ، والباحث المجتهد غير معصوم من الزلل ، فلذلك تكثر الحيرة عند المباحث اللطيفة ، وتتشتت الآراء وتفترق الظنون ، وتختلف النتائج ، ويتعذر اليقين » [١٩]

١٧- عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ٥٥٢

١٨ - كتاب المناظر : ٦٢

١٩ - المصدر نفسه : ٦٠

إن الإشارة الى خطأ الحواس وما ينتج عنها من تضليل للباحثين يؤكد النزعة التجريبية لدى ابن الهيثم وتجعل آراءه في الشك المنهجي متكاملة من حيث جانبها النظري وجانبها العملي ، ويتبين أن جميع العناصر الأساسية التي تشكلت منها نظرية الشك عند ديكارت كانت متوفرة لدى ابن الهيثم ، وقبل ديكارت بقرون عديدة .

وأما الجاحظ الذي كان سابقا لابن الهيثم بمائة وسبعين سنه وللغزالي بقرنين ولديكارت بنحو ثمانية قرون فهو سابق لهؤلاء العلماء جميعا في تقرير الشك المنهجي في جوانبه النظرية والتطبيقية .

لقد وضع الجاحظ لهذا المنهج ملامحه النظرية والفكرية في كثير من الدقة ثم التزمه تطبيقيا في دراسته للحيوان في كتابه الموسوم بهذا الاسم « الحيـوان » . وعلى هذا فإن الجاحظ هو الذي يجب أن يعزى إليه السبق في ابتكار منهج الشك ، لأن جميع من تناولوا هذا الموضوع بالبحث كانوا متأخرين عنه ، ونخص بالذكر منهم ديكارت الذي يلهج الغربيون دائمًا بسبقه في إبداع هذا المنهج ، كما لانستبعد أن يكون بعض من تحدثوا عن الشك المنهجي قد تأثروا بالجاحظ وأخذوا عنه .

ولايخفى أن اهتداء الجاحظ الى اكتشاف الشك المنهجي في وقت مبكر جدا يرجع الى تكوينه العقلي الناجم عن استعداد فطري من جهة ، وعن تأثره بمذهب الاعتزال الذي كان واحدا من أكبر علمائه من جهة ثانية . ومذهب « الاعتزال » ، كما هو معروف ، يعطي العقل أهمية كبرى في اكتساب المعرفة الانسانية وفي الوصول الي الحقيقة .

الشك المنهجي عند الجاحظ :

أ ـ في الجانب النظري :

استخدم الجاحظ الشك المنهجي في دراسته الموّسعه عن الحيوانات في كتابه « الحيوان » ، ولم يكن أخذه بهذا المنهج قائما على انطباعات عفوية في الشك ، بل كان قائما على أسس فكرية تشكل لديه أساسا علميا يأخذ ، مع شيء من التجوز ، شكل « نظرية » يبثّ آراءه حولها في تضاعيف صفحات الكتاب .

والجاحظ في حرصه على استخدام الشك طريقا من طرق البحث يؤكد على قضية أساسيه

يعتبرها سلاح الباحث للوصول إلى الحقيقة وهي قضية « الإنصاف » : الإنصاف نحو نفسه أولا ، والإنصاف نحو ما يتلقاه من ألوان المعرفة ثانياً ، أما الإنصاف نحو نفسه فإنه يقتضي منه إعطاءها حجمها الطبيعي فلا يضخمها لتأخذ أكبر من حجمها ، ولايتضاءل بها فيضعها دون مكانها ، لأنه في كلا الحالين يكون قد جار على نفسه سواء بالزيادة أو بالنقصان ، ومن تسامح في حق نفسه يكون أشد تسامحا في حق غيره . وأما الإنصاف نحو مايتلقاه من ألوان المعرفة فانه يقتضى منه أن يتهم أمرين في نفسه : أن يتهم أولا ما ألفه لأن ألفة الشيء تجعله في نفس صاحبه في منزلة الحقيقة التي لاتقبل جدلا أو شكا وأن يتهم ثانيا ما كان ميالا له بعاطفته أو بطبعه ، لأن الهوى يكون مقارنا للميل وللعاطفه ، ومنطق الهوى يجانب في كثير من الأحيان منطق العقل . يقول الجاحظ في ذلك : « وأنا أزعم أن الناس يحتاجون بدئا إلى طبيعة ثم إلى معرفة ثم إلى إنصاف . » وأول ما ينبغي أن يبتدىء به صاحب الإنصاف أمره ألاّ يعطي نفسه فوق حقها ، وألاّ يضعها دون مكانها ، وأن يتحفظ من شيئين فإن نجاته لا تتم ألاّ بالتحفظ منهما : تهمه الإلف ، والآخر تهمه السابق إلى القلب [٢٠] .

إن طلب الجاحظ من صاحب المعرفة أن يتصف بالإنصاف وأن يتهم ما ألفه وما مال إليه يمثل المدخل الذي يفضي به إلى الشك وإلى التزامه منهجا في البحث لأنه يدعوه إلى الشك بالمسلمات التي تعامل معها سواء بالألفة أم بالميل .

والجاحظ لايكتفي بتوجيه الأنظار إلى أهمية الشك في البحث بل يطالب بصيغة الأمر بتعلم الشك تعلما لأنه يرى أنه إذا لم يكن لذلك من فائدة سوى تعويد الباحث على التوقف والتثبّت فإنه يغدو من الضرورات التي لايستغنى عنه باحث . ومثل هذه المطالبة بتعلّم الشك من أجل بلوغ الحقيقة لانجد لها مثيلاً ـ في مانعلم ـ لدى جميع الباحثين الذين تحدثوا عن الشك ، سواء من القدماء أو من المحدثين . إنه يقول : « وتعلَّم الشك في المشكوك فيه تعلما فلو لم يكن في ذلك الا تعرف التوقف والتثبت لقد كان ذلك مما يحتاج إليه » [٢١] .

ان الشك لدى الجاحظ ليس هدفا مطلوبا لذاته بل هو مرحلة لازمة لبلوغ مرحلة اليقين التي هي الهدف الحقيقي لكل باحث ، فالشك اذاً هو منهج لمعرفة الحقيقة ، وإغفاله قد يحجب

---

٢٠ ـ الحيوان : ٤ ـ ٢٧

٢١ ـ المصدر نفسه : ص ٦ / ٣٥

المرء عن بلوغ هذا الهدف « فاعرف مواضع الشك والحالات الموجبة له لتعرف مواضع اليقين والحالات الموجبه له » [٢٣] .

وقد تنبه الجاحظ إلى مبدأ هام في استخدام الشك وهو أن الشك لايأخذ صورة واحدة دائمًا ، وإنما يتدرج في طبقات من القوة والضعف وذلك على عكس اليقين الذي يمثل درجة واحدة من القوة : « اعلم أنّ الشك طبقات عند جميعهم ، ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات من القوة والضعف » [٢٣] . وهذا التأكيد لوجود درجات من الشك استفاده الجاحظ من تطبيقه العملي لمنهجه في الشك وذلك خلال دراسته عن الحيوان وفي مناقشته لآراء الآخرين التي كان يعرضها في تلك الدراسة ، فهو يستخدم هذا المنهج استخداماً متكاملاً يتدرج فيه من درجة الحذر والتهيب في الحكم على صدق بعض الأشياء أو الآراء ، الى أقصى درجات التكذيب ، وذلك عبر عشرات من درجات الشك ، مما سترد الإشارة إليه في مواضعه خلال دراستنا للجانب التطبيقى لمنهج الشك لديه ، ونجتزىء من ذلك بالاشارة إلى مثالين موجزين يمثل أحدهما واحدة من درجات الضعف في الشك ، ويمثل الآخر واحدة من درجات القوة فيه . أما أولهما فهو قوله : « وسمعت حديثا من شيخ من ملّاحي الموصل ، وأنا هائب له . . . [٢٤] ، وأما ثانيهما فهو قوله « رادا ما جاء في كتاب لشخص يدعى (عبيد بن الشونيزي) ومؤكدا أنه لايكلف نفسه حتى عناء نقده : « ولكن موضوع البياض من هذا الكتاب ـ أي كتاب الحيوان للجاحظ ـ خير من جميع ما كان لعبيد » [٢٥] .

والشك عند الجاحظ ملازم لطلب المعرفة ، لأن كل يقين لابد أن يسبقه شك ، ولا يتحول إنسان من رأي إلى آخر الا كان الشك محرضا له على ذلك « . . . ولم يكن يقين قط حتى كان قبله شك ، ولم ينتقل أحد من اعتقاد الى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك » [٢٦] .

وكما يستقصى الجاحظ درجات الشك يستقصى أيضاً فئات الناس من حيث تعاملهم مع الشك وطريقة أخذ أنفسهم به . إنه يؤكد أن هناك فئتين من الناس متناقضتين في نظرهما الى

---

٢٢ ـ المصدر نفسه والصفحة نفسها

٢٣ ـ المصدر نفسه والصفحة نفسها

٢٤ ـ المصدر والصفحة نفسهما ٢ / ١٢٦

٢٥ ـ المصدر نفسه : ٥ / ٢٤٨

٢٦ ـ المصدر نفسه : ٦ / ٣٦

الشك ، وكلتاهما على غير الصواب ، ذلك أن إحدى الفئتين تأخذ الأمور بالتسليم دون تكليف نفسها عناء التبّين ، فأصحابها دائما أقرب الى تصديق مايسمعون ، وأمّا الأخرى فأصحابها يأخذون أنفسهم بالشك الذي هو مجرد تكذيب ، وهذه الفئة في استماعها لبعض الغرائب لاتكلف نفسها التثبت والتمحيص ، بل تسارع الى تكذيب ما تسمع ، توّهما أن ذلك فضيلة في البحث ، والفئتان تلغيان الحالة الوسطى الواقعة بين التصديق والتكذيب ، والتي تمثل في حقيقة الأمر الشك العلمي والمنهجي : « وأكثر الناس لاتجدهم الا في حالتين : إما في حال إعراض عن التبين وإهمال للنفس ، وإما فى حال تكذيب وانكار وتسرع الى أصحاب الاعتبار وتتبّع الغرائب والرغبة في الفوائد ، ثم يرى أن له بذلك التكذيب فضيلة ، وأن ذلك من باب التوقي وجنس من استعظام الكذب [٢٧] .

وبناء على ذلك فإن الجاحظ يقرر أن الشك الذي يمثل المرحلة الوسطى بين التصديق والتكذيب هو سمة لخواص الباحثين ، لأنهم على عكس ماعليه العوام الذين هم في الأصل أقل شكوكا ، وذلك لأن الأمور في نظرهم لاتعدو في أغلب الأحيان التصديق المجرد أو التكذيب المجرد لأنهم ألغوا المرحلة الوسطى ويحدد الجاحظ هذا المعنى بدقة فيقول : « والعوام أقل شكوكا من الخواص لأنهم لايتوقفون في التصديق والتكذيب ، ولا يرتابون بأنفسهم فليس عليهم إلا الإقدام على التصديق المجرد أو على التكذيب المجرد ، وألغوا الحالة الثالثة من حالات الشك التى تشتمل على طبقات الشك وذلك على قدر سوء الظن وحسن الظن بأسباب ذلك ، وعلى مقادير الأغلب » [٢٨] . ويقرر الجاحظ أن في الحياة أمورا تقتضي بنفسها التكذيب المطلق ، وأن هناك أمورا أخرى تحتمل التصديق والتكذيب ، وفي مثل هذه الأمور الأخيرة يتم استخدام الشك بغية الوصول الى اليقين . لقد وضع الجاحظ معايير لتحديد الأمور التي يجرى عليها التكذيب المطلق والأمور التي تخضع للشك ، أما ما يجرى عليه التكذيب المطلق فإن معايير اكتشافه تتمثل في أمرين أحدهما ماحمل في نفسه تناقضا يقتضي الاستحالة ، والآخر ما كان ممتنع الوجود في طبيعته ، وأما غير هذين الأمرين فهو الذي يخضع لمعايير التثبت وهو الذي يقبل الخضوع لمنهج الشك . كما يطلب الجاحظ من الباحث أن يتسم بالموضوعية لكي يقبل النتائج التي يفرضها التثبت سواء

---

٢٧ - الحيوان : ٣ / ٢٣٨

٢٨ - الحيوان : ٦ / ٣٦

كانت موافقة لهواه أو مخالفة له : « . . . والحق الذي أمر الله تعالى به ورغب فيه وحث عليه أن ننكر من الخبر ضربين : أحدهما ماتناقص واستحال ، والآخر ما امتنع في الطبيعة وخرج من طاقة الخلقة ، فإذا خرج الخبر من هذين البابين وجرى عليه حكم الجواز فالتدبير في ذلك (التثبت) وأن يكون الحق هو ضالتك والصدق هو بغيتك كائنا ماكان ، وقع منك بالموافقة أم وقع بالمكروه ، ومتى لم تعلم أن ثواب الحق وثمرة الصدق أجدى عليك من تلك الموافقة لم تقع على أن تعطى التثبت حقه » [٢٩] .

وفي استخدام الجاحظ للشك المنهجي يتحفظ على معطيات الحواس ، لأن الحواس قد تخطىء وقد تخدع صاحبها ، ويقرر أن العقل وحده هو الذي يُعَوّل عليه في الأحكام ، وانه هو القادر على تحرير الصادق منها من المخادع : وَلَعَمْري إن العيونَ لتُخطىء ، وإن الحواس لتكذب وما الحكم القاطع الا للعقل ، إذ كان زماماً على الأعضاء وعيارا على الحواس [٣٠] .

ويؤكد الجاحظ هذا المبدأ أكثر من مره لأنه أصبح عنده من المسلمات : « وللأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقول ، والعقل هو الحجة » [٣١] . وقد تنبه بعض الباحثين المحدثين الى نظرة الجاحظ إلى الحواس كطريقة من طرق المعرفة ، إذ يشير إلى ذلك الدكتور « أمين الخولي » في الكلمة التي ألقاها خلال أسبوع الجاحظ الذي أقامته كلية الآداب بالجامعة المصرية عام ١٩٣٧ فيقول : « وطريقة المعرفة عند الجاحظ للحواس والعقل ، على اتهامٍ للحواس واطمئنان للعقل [٣٢] .

ومن خلال هذا العرض للمبادىء التي اعتمدها الجاحظ في استخدامه للشك نستطيع أن نقرر أن الشك يمثل منهجاً للمعرفة عنده ، وأنه يقرر لهذا المنهج ملامح واضحة ، تصلح ، إذا نُظِمّت وضُمَّتّ أجزاؤها إلى بعض ، أن تكون نواة لنظرية للشك المنهجي .

وإذا حاولنا أن نقارن بين المبادىء الأساسية التي اعتمدها ديكارت في رسم ملامح نظريته وتلك التي جاء بها الجاحظ ، وجدنا أن الجاحظ سبقه الى تقريرها جميعها وهي :

---

٢٩ - نفسه : ٢٨٣

٣٠ - الموجز في الأدب العربي : ٨٥

٣١ - الحيوان : ١ / ٢٠٧

٣٢ - مجلة الرسالة : السنة ٥ - ص ٦٢٠

١ ـ الموضوعية والتحرر من تأثير الهوى والعاطفة .
٢ ـ رفض الأحكام المسبقة .
٣ ـ عدم الثقة بمعطيات الحواس ، لأن الحواس قد تخدع في بعض الأحيان .
٤ ـ الثقة بالعقل ، والاعتماد عليه في الأحكام .
٥ ـ اعتماد الشك طريقا للوصول إلى اليقين .

كما نستطيع أن نضيف اليها مبدأ آخر نادى به الجاحظ وهو أن الشك ليس على درجة واحدة من القوة ، بل هو على درجات في ذلك ، وذلك بحسب استعداد الباحث وقدرته على التحليل وعلى النفاذ الى بواطن الأمور .

وإذا كان ديكارت قد استخدم مبادىء الشك المنهجي في الأمور الفكرية وفي العلوم التطبيقية معاً فإن الجاحظ قد استخدمها في الميدانين معاً ، وبكثير من التوسع ، الأمر الذي نستطيع معه أن نقرر أن الجاحظ يستحق ـ عن جدارة ـ أن يُعْزى اليه ابتكار (منهج الشك) في المعرفة ، لأنه سابق بثمانية قرون لديكارت صاحب نظرية الشك لدى الغربيين . وعسى أن يقوم المنصفون منهم بمراجعة ماسبق أن قرره باحثوهم القدامى حول هذا الموضوع ، وذلك لكي يعيدوا الحق إلى نصابه ، لأن الحق هو ضالة أي باحث ، ومتى اتضحت ملامح الحق لايسوغ الانحراف عنه تحت وطأة أي ظرف من الظروف .

ب ـ في الجانب التطبيقي :

آراء الجاحظ النظرية الكثيرة حول الشك كانت مدّعمة بنماذج تطبيقية متناثرة في ثنايا كتابه « الحيوان » ولم يكن يلجأ فيها إلى أسلوب واحد من الشك ، بل كان ينوع هذه الاساليب بتنوع الأخبار التي كان يوردها ويتناولها بالنقد . وسنحاول أن نعرض نماذج من هذه الأساليب مصنّفة في زمر تضم ما تقارب من هذه النماذج .

١ ـ إكثاره من استخدام صيغتي (الزعم) و (القول) :

لعلّ صيغة (زعم) هي الصيغة التي تطرد في معظم ماينقده الجاحظ ، ومثلها ـ على قلّة في الاستعمال ـ صيغة (قال) . كان الجاحظ يكتفي أحيانا برواية مايرويه مشفوعا بإحدى هاتين الصيغتين أو بكلتيهما ، وقد يقرنهما أحيانا بألوان من أساليب النقد تدعم وجهة نظره في الشك

وكان يستمد هذه الأساليب من طبيعة الخبر أو من طبيعة الرواية التي يساق من خلالها . فمن استخدامه لصيغة (زعم) وحدها قوله : «والعامة تزعم أن الغول تتصور في أحسن صورة ، إلا أنه لابد أن تكون رجلها رجل حمار» [٣٣] . ومن استخدامه لصيغة (قال) وحدها قوله : «ويقال إن الذباب لايقرب قدراً فيه كمأة كما لايدخل سام أبرص بيتا فيه زعفران»[٣٤].

أما ما كان يضيفه الى هاتين الصيغتين من أساليب النقد فهو متنوع ، ولعل لكل صيغة منه دلالتها المميّزة ، فمن ذلك ردّه لبعض الروايات بنسبتها إلى فئة من الناس عرفت بالكذب كالقصاصين أو عرفت بالبساطة والغفلة والجهل كالعامة والعجائز أو أصحاب المصالح كالباعة ؛ الأمر الذي يسهل عليها قبول الكذب ، من ذلك قوله : « وتزعم الفرس أن الأجدهاني أعظم من البعير وأن له سبعة رؤوس ، وربما لقيت ناسا فتبتلع من كل جهة فمٍ ورأس إنسانا ، وهو من أحاديث الباعة والعجائز»[٣٥] .

ومنه قوله : «وأما قول النساء وأشباه النساء في الخفافيش فإنهم يزعمون أن الخفاش إذا عض الصبيَّ لم ينزع سنَّهُ من لحمه حتى يسمع نهيق حمار وحشي . فما أنسى فزعي من سن الخفاش ووحشتي من قربه إيانا بذلك إلى أن بلغت . وللنساء وأشباه النساء في هذا وشبهه خرافات عسى أن نذكر شيئا منها إذا بلغنا الى موضعه»[٣٦] .

ومثله أيضاً حديثه عن زعم بعض المفسرين أن السنّور خلق من عطسة الأسد وأن الخنزير خلق من سلحة الفيل في سفينة نوح ، ثم يعلق على ذلك بقوله : « وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص »[٣٧] .

ومن هذه النماذج تصريحه بتكذيب الخبر بصراحة لأنه يحمل في طياته أدلة تكذيبه ومن ذلك قوله : « وقد زعم صاحب المنطق أنه قد ظهرت حيه له رأسان فسألت أعرابيا عن ذلك فزعم أن ذلك حق ، فقلت له : فمن أي جهة الرأسين تسعى ومن أيهما تأكل وتعض فقال : فأما السعي فلا تسعى ، ولكنها تسعى الى حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل ، وأما الأكل فإنها تتعشّى بفم وتتغدى بفم ، وأما العض فإنها تعض برأسيها معا ، فإذا به أكذب البرية »[٣٨]

---

٣٣ - الحيوان : ٤ / ٢١٤
٣٤ - الحيوان : ٣ / ٣٠٨
٣٥ - الحيوان : ٤ / ١٥٥
٣٦ - الحيوان : ٣ / ٥٣٤
٣٧ - الحيوان : ٥ / ٣٤٨
٣٨ - الحيوان : ٤ / ١٥٦

ومن ذلك أيضاً رفض الجاحظ للخبر لرفضه التعليل الذي قدمه أصحابه لأنه بعيد عن منطق الأمور ثم تقديمه هو بعد ذلك تعليلا ، يجعل الخبر مقبولا في الاحتمال ، ومن ذلك قوله : « ويزعم أهل حمص أن فيهاطِلَّسْما من أجله لا تعيش فيها العقارب وإن طُرِحت فيها عقرب غريبة ماتت من ساعتها . ولعمري إنه يجوز أن تكون بلدة تُضاد ضربا من الحيوان فلا يعيش فيه ذلك الجنس ، فيدّعي كذّابو أهلها أن ذلك برقية أو دعوة أو طلّسم »[٣٩] . ومنه إيراده الخبر ثم مناقشته ورفضه باستعراض عدد من الحجج تُسفّه الرواية وتجعل الخبر غير مقبولٍ من جهة النظر المنطقية ، ومن ذلك روايته لقصة الحية التي كانت في بلاد بني العنبر والتي يرويها الجاحظ على الشكل التالي : « حدثنا أبوجعفر النحوي العنبر ي وأخوه رَوْح الكاتب ورجال من بني العنبر أن عندهم في رمال بلعنبر حية تصيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيد . زعموا أنها إذا انتصف النهار واشتد الحر في رمال بلعنبر وامتنعت الأرض على الحافي والمنتعل ورمض الجندب غمست هذه الحيّة ذنبها في الرمل ، ثم انتصبت كأنها رمح مركوز أو عود ثابت ، فيجيء الطائر الصغير أو الجرادة فإذا رأى عودا قائما وكره الوقوع على الرمل لشدة حرّه ، وقع على رأس الحية على انها عود ، فإذا وقع على رأسها قبضت عليه ، فإذا كان جرادة أو جعلا أو بعض ما لا يشعبها مثله ، ابتلعته وبقيت على انتصابها ، وإذا كان الواقع على رأسها طائرا يشبعها مثله أكلته وانصرفت ، وإن ذلك دأبها ما منع الرمل جانبه في الصيف والقيظ ، في انتصاف النهار والهاجرة ، وذلك أنّ الطائر لايشك أن الحيّة عود وأنه سيقوم له مقام الجذل [٤٠] للحرباء الى أن يسكن الحر ووهج الرمل .

وفي هذا الحديث من العجب أن تكون هذه الحيّة تهتدي لمثل هذه الحيلة ، وفيه جهل الطائر بفرق مابين الحيّة والعود ، وفيه قلة اكتراث الحية بالرمل الذي عاد كالجمر وصلح أن تكون ملة [٤١] وموضعا للخبزة ، ثم أن يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار ، و الرمل على هذه الصفة ، فهذه أعجوبة من أعاجيب ما في الحيات » [٤٢] .

إن القصة بذاتها طريفة ، وقصة في مثل طرافتها يحرص الجاحظ على إثباتها في الفصل الذي يتحدث فيه عن الحيات ولكن عقله المنهجي لا يقبل تصديقها ، فنراه يحوطها بألوان من الشكوك

---

٣٩ - الحيوان : ٥ / ٢٩٧

٤٠ - الجذل : أصل الشجرة

٤١ - الملة : الرماد أو الجمر يخبز عليه

٤٢ - كتاب الحيوان : ٤ / ١٠٧

تجعل القارىء يشك بصحتها دون أن يصرح هو نفسه بتكذيبها . لقد بدأ الجاحظ رواية القصة بذكر السند الذي رويت القصة من خلاله ، باسلوب ينم عن شكه في الرواية وعن تحفظه على هذا السند ، فإن الراوي الأول للقصة هو رجل « مكفوف » وبالتالي فإن روايته مضعوفه ، ولذا يحاول التأكد من صحتها بسؤال آخرين عنها ، حتى اذا تواترت الرواية من عدة رجال أثبتها ، ولكن إثباته لها كان مشفوعا بصيغة « زعموا » التي تؤكد شكه بصحتها . وبعد سرد حكاية الحيّة يسجل شكه الموضوعي حول مضمونها وذلك في قوله : « وفي هذا الحديث من العجب ١ ـ أن تكون هذه الحيّة تهتدي لمثل هذه الحيلة . ٢ ـ وفيه جهل الطائر بفرق مابين الحيّة والعود . ٣ ـ وفيه قلة اكتراث الحيّة للرمل . ٤ ـ ثم أن يشتمل الرمل على ثلث الحيّة . » أربعة شكوك ساقها الجاحظ في نقده لمضمون القصة لكي يدلل على عدم اقتناعه بصحتها .

٢ ـ تشكيكه بصدق الراوي لإسقاط روايته :

ومن أساليب الجاحظ في الشك لجوءه إلى كشف كذب الراوي لإثبات كذب الرواية ومن أمثلة ذلك كشف التناقض الصريح بين خبرين أو رأيين للراوي يكذب أحدهما الآخر ، فقد أورد لرجل حوّاء اسمه ابن أبي العجوز قوله عن الحيات « وزعم ابن ابي العجوز الحوّاء أن الأفاعي صُمٌّ فلذلك لا تجيب الرقي » [٤٣] .

ثم أورد خبرا يناقض رأيه السابق يورد فيه قصة جرت له أمام الخليفة المنصور يزعم فيها أن المنصور أراد امتحان صدقه برقية الحية فأمر فصنعت له حية من رصاص ألصقت بالسقف وطلب منه انزالها فما زال يرقى ويرقى ويقرن ذلك بتصرفات تدل على شدة انفعاله حتى ذاب ذلك الرصاص وسال ، ويعلق الجاحظ على الروايتين بتكذيب الرجل حين يقول له : « ويلك : زعمت أن الأفاعى لا تجيب الرقي ثم زعمت انها أجابت وهي جماد » .

وقد يردّ الجاحظ رواية الراوي لاتهامه بالهوى والعصبية ، من ذلك شكه بأقوال طبيبين زعما أن جيفة البعير أنتن الجيف وعزا ذلك الى عصبيتهما على العرب وعلى المسلمين [٤٤] . فقال « وزعم لي سلمويه [٤٥] وأبن ماسويه [٤٦] مطبّبا الخلفاء أن ليس على الأرض جيفة أنتن نتنا

---

٤٣ ـ انظر هذه الرواية والخبر التالي لها في الحيوان : ٤ / ٤١٩

٤٤ ـ الحيوان : ١ / ٢٤٦

٤٥ ـ سلمويه بن بنان : طبيب الخليفةالمعتصم (توفى سنه ٢٢٥) ـ انظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢٣٤

٤٦ ـ ماسويه : يوحنا بن ماسويه : طبيب الخليفة الواثق (توفى ٢٣٤ هـ) انظر عيون الانباء في طبقات الأطباء ص ٢٤٦

ولا أثقب ثقوبا من جيفة بعير ، فظننت أن الذي وهمها ذلك عصبيتها عليه وبغضها لأربابه ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم هو المذكور في الكتب براكب البعير » .

وقد يعمد الجاحظ الى التشكيك بالراوي بنعته بالجهل وقلة الحيلة على الرغم من ظرفه تأكيداً لشكه بالخبر نفسه ثم يلجأ الى مناقشة الخبر علميا ، وبأسلوب عملي ليؤكد شكه في صحته ، فقد أورد الجاحظ خبرا عن شخص يدعى « المكّي » فيقول : « وقال لي المكّي مرّة إنما عمر الذبان أربعون يوما ، قلت : هكذا جاء في الأثر ؟ » . وكنا يومئذ يواسط في أيام العسكر ، وليس بعدَ أرضِ الهند أكثر ذبابا من واسط ولربما رأيت الحائط وكأن عليه مسحا (٤٧) شديد السواد من كثرة ماعليه من الذبّان ، فقلت للمكّي : أحسب الذبان يموت في كل اربعين يوما وإن شئت ففي أكثر ، وإن شئت ففي أقل ، ونحن كما ترى ندوسها بأرجلنا ، ونحن هاهنا مقيمون من أكثر من أربعين يوما بل منذ أشهر ، وما رأينا ذبابا واحدا ميّتا فلو كان الأمر على ذلك لرأينا الموتى كما رأينا الأحياء ، قال : الذبابة إذا أرادت أن تموت ذهبت الى بعض الخربات قلت : فإنا قد دخلنا كل خربة في الدنيا ، وما رأينا فيها قط ذبابا ميتا » (٤٨) .

ثم يعلق على القصة بعرض وصف للرجل يؤكد تكذيبه له فيقول : « وكان المكّي طيبا طيّب الحجج ظريف الحيل ، عجيب العلل ، وكان يدّعي كل شيء على غاية الإحكام ، ولم يحكم شيئا قط » (٤٩) .

٣ ـ تكذيب الخبر مع الشهادة للراوي بالأمانة والصدق :

قد يعمد الجاحظ إلى تكذيب الخبر لعدم منطقيته أو لأن التجربة تكذبه ، مع إعلان احترامه للراوي ووصفه بالأمانة وبالصدق . من ذلك قوله : « وزعم لي بعض الأطباء ممن أصدق خبره أن الشفنين (٥٠) إذا هلكت أنثاه لم يتزوج وإن طال عليه التعزّب » (٥١) ومن ذلك أيضاً حكايته خبراً منقولاً عن إياس بن معاوية الذي كان يضرب به المثل في الذكاء وصدق الفراسة يقول فيه : « وقد روى لنا غير واحد من أصحاب الأخبار أن إياس بن معاوية زعم أن الشبوط كالبغل وأن أمها بنّيّة وأباها زجر » (٥٢) وأن من الدليل على ذلك أن الناس لم يجدوا في بطن شبوطة

---

٤٧ ـ المسح : الكساء

٤٨ ـ الحيوان : ٣ / ٣٢٤

٤٩ ـ الحيوان : ٣ / ٣٢٥

٥٠ ـ الشفنين : نوع من الطير حسن الترنم

٥١ ـ الحيوان : ٥ / ٣٤٢

٥٢ ـ الشبوط والبني والزجر : أنواع من السمك

قطّ بيضا » [٥٣] ، ثم يعلق على ذلك ، ويدفع الخبر بعد ملاحظة الشبوط ملاحظة عملية أكدت له عدم صحته ولكنه يزكي الراوي الأصلي للخبر فيقول : « وأنا أخبرك أني قد وجدته فيها مرارا ولكني وجدته أصغر جثة ، وأبعد من الطيب ، ولم أجده عاما كما أجده في بطون السمك . فهذا قول أبي واثلـه إياس بن معاوية الفقيه القاضي وصاحب الإزكان [٥٤] ، وأقوف [٥٥] من كرْز بن علقمة [٥٦] وداهية مضر في زمانه ومفخر من مفاخر العرب .

٤ ـ الشك من خلال التهكم :

ولايفقد الجاحظ طبيعتة المرحة في نقد بعض الأخبار ، فهو يعلن شكه بصدقها من خلال تعليقات تهكمية تؤكد عدم تصديقه لها ، من ذلك تعليقه على الخبر التالي :« . . . ولكن العجب كل العجب ماذكروا من إخراج ولد الكركدن رأسه واعتلافه ثم إدخال رأسه بعد الشبع والبطنه ، ولابد ـ أكرمك الله ـ لما أكل من نجْوٍ [٥٨] فإن كان بقى ذلك الولد يأكل ولايروث ، فهذا عجب ، وإن كان يروث في جوفها فهو أعجب » . [٥٩] .

وهناك خبر آخر يجهّل الجاحظ ناقليه ، ثم يرد عليهم متهكما فيقول : « قلنا : قد زعم ابن حائط وناس من جهّال الصوفية أن في النحل أنبياء لقوله عز وجل : « وأوحى ربك الى النحل . . . » وزعموا أن الحواريين كانو أنبياء لقوله عز وجل : « وإذ أوحيت الى الحواريين » . قلنا: وما خالف الى أن يكون في النحل أنبياء ، بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء لقوله عز وجل ، على المخرج العام : « وأوحى ربك الى النحل » ، ولم يخص الأمهات والملوك واليعاسيب ، بل أطلق القول إطلاقا . [٦٠] . ثم يعود الجاحظ الى جدية الباحث فيدحض آراء الجهال فيقول : « فإن كنتم مسلمين فليس هذا قول أحد من المسلمين ، وإلا تكونوا مسلمين فلم تحيلون الحجة على نبوة النحل كلاما هو عندكم باطل » [٦١] .

---

٥٣ ـ الحيوان : ٦ / ١٨

٥٤ ـ إلازكان : تقدير شيء ما بالظن ثم تبين إصابته

٥٥ ـ أقوف : من القيافة ، وهي المهارة في معرفة الآثار

٥٦ ـ كرز بن علقمة بن هلال الخزاعي : صحابي معروف

٥٧ ـ الحيوان : ٦ / ١٨

٥٨ ـ النجو : الروث

٥٩ ـ الحيوان : ٧ / ١٢٥

٦٠ ـ الحيوان : ٥ / ٥٢٤

٦١ ـ المصدر والصفحة نفسها .

٥ ـ رد الخبر بعد إخضاعه للتجربة التي تثبت فساده :

كان الجاحظ يستخدم المنهج التجريبي في دراسته للحيوان ، وقد تبين لنا طرف من ذلك في تعليقات سابقة ، واستخدام الجاحظ للمنهج التجريبي كان يطرد في الأخبار التي كان يشك في صحتها والتي كانت مادتها قابلة للتجريب ، والأخبار التي ردها بعد إخضاعها للتجربة كثيرة جداً في كتابه ، من ذلك قوله : « وقيل لي ، وقرأت في كتاب الحيوان أن ريح السَذاب يشتد على الحيات فألقيت على وجوه الأفاعي جُرَزَ السَذاب فما كان عندها الا كسائر البقل » . ومنه قوله من خلال حديثه عن النمل : « وتُقتل ، أي النمل ، بأن يُصَبّ في أفواه بيوتها القطران والكبريت الأصفر ويُدَسّ في أفواهها ـ أي أفواه بيوتها ـ الشعر وقد جربنا ذلك فوجدناه باطلاً » [٦٣] ، ومثل ذلك يتجلى في قوله : « وخبرني ثمامة عن أمير المؤمنين المأمون أنه قال : قال لي بختيشوع بن جبريل وسلمويه وابن ماسويه أن الذباب إذا دلك به موضع لسعة الزنبور سكن . فلسعني زنبور فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة فما سكن ، إلا في قدر من الزمان الذي كان يسكن فيه من غير علاج » . ثم يعلق على ذلك بتهكمه المعهود : « فلم يبق في يدي منهم الا أن يقولوا كان هذا الزنبور حتفا قاضيا ولولا هذا العلاج لقتلك [٦٤] . وتكذيب الخبر بالتجربة يشبهه تكذيب الخبر بالعيان ، إذا كذَّبَتِ المُشاهدة مثل هذا الخبر ، لأن العيان يغني عن التجربة ، ومن ذلك قوله : « وزعموا أن البلبل لايستقر أبداً ، وهذا غلط لأن البلبل إنما يقلق لأنه محصور في قفص ، والذين عاينوا البلابل والعصافير في أوكارها وغير محصورة في الأقفاص يعلمون فضل العصفور على البلبل في الحركة [٦٥] .

٦ ـ رد الخبر لعجز أصحابه عن إقامة الدليل على صحته :

ومن الأخبار مايورده الرواة وهم عاجزون عن البرهان على صحتة لتعذر ذلك ، ومن ذلك قوله من خلال حديثه عن العصافير : « والذين زعموا أن ذكورتها لاتعيش الا سنة يحتاجون الى أن يعرفوا الناس ذلك ، وكيف يستطيعون تعريفهم » ؟ [٦٦] .

---

٦٢ ـ الحيوان : ٥ / ٣٦٥
٦٣ ـ الحيوان : ٤ / ٣٦
٦٤ ـ الحيوان : ٥ / ٣٦٤
٦٥ ـ الحيوان : ٥ / ٢٢٤
٦٦ ـ الحيوان : ٥ / ٢٢٢

٧ ـ رد أخبار لتصور الجاحظ أنها مخترعة وأنه كان يضع مثلها للمداعبة :

وهناك أحاديث وروايات يشك الجاحظ أنها موضوعة فيدفعها دون مناقشة لأنها من التهافت بحيث لاتستدعى أية مناقشة ، ولأن الكذب فيها واضح ولأن أصحابها ـ في تصوره ـ قد وضعوها من باب المزاح والمداعبه ـ ويضرب على ذلك أمثله مما كان يخترعه هو وأصحابه لذلك الغرض ، من ذلك قوله : « والحديث عن مسخ الضب والجرّى ، وعن مسخ الكلاب والحكأة ، وأن الحمام شيطان ، من جنس المزاح الذي كنا كتبنا به الى بعض إخواننا [٦٧] ممن يدعي علم كل شيء فجعلنا هذه الخرافات ، وهذه الفطن الصغار من باب المسائل فقلنا له « ما الشنقناق والشيصبان وتنكوير ودر كاذاب ، ومَنْ قاتل امرأة مقبل ؟ ومَنْ خانق الغريض ؟ ومَنْ هاتف سعد ؟ » [٦٨] . ويقاس على ذلك رفضه لأخبار مرفوضة عقليا لأنها من ضروب الخزعبلات ، وينعى على بعض الناس إيمانهم بها لمجرد وجودها في مرويات بعض العلماء ، ولأن رواية الراوي لها في كتبه لاتعني دائما التصديق بها ، بل ربما قصد من وراء عرضها التندر أو كشف الباطل منها من الحقيقى ، ومن ذلك قوله : « وللناس في هذا الضرب ضروب من الدعوى ، وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحقيقها كالذي يدّعون من أولاد السعالى ، كما ذكر عمرو بن يربوع ، وكما يروي أبوزيد النحوي عن السعلاة التي أقامت في بني تميم حتى ولدت فيهم ، فلما رأت برقا يلمع من شق بلاد السعالي حنت وطارت اليهم فقال :

أرى برقا فأوضع فوق بكرِ ... فلا بكَ ما أسالَ وما أغاما

وأنشدني أن الجنّ طرقوا بعضهم فقال :

أتوا ناري فقلت : منون أنتم ... فقالو : الجن ، قلت : عموا ظلاما

فقلت : إلى الطعام فقال منهم ... زعيم : نحسد الإنس الطعاما

ويعلق الجاحظ على الخبر قابلا ورود الرواية في كتب رواتها منكرا صحة الخبر : « ولم أعب الرواية ، وإنما عبت الإيمان بها والتوكيد لمعانيها ، فما أكثر من يروي هذا الضرب على التعجب منه ، وعلى أن يجعل الرواية له سببا لتعريف الناس حق ذلك من باطله »[٦٩] .

---

٦٧ ـ المقصود به : احمد بن عبدالوهاب الذي صنع فيه الجاحظ رسالته « التربيع والتدوير » وانظر الحيوان ج/ ١ ـ هامش الصفحة ٣٠٨

٦٨ ـ الحيوان : ١ / ٣٠٨

٦٩ ـ الحيوان : ١ / ١٨٥

٨ ـ الشك برواية الخبر من خلال تحفظه حوله وتقديمه أحيانا تعليلا بديلا مقبولا :

يورد الجاحظ كثيراً من الروايات دون أن ينكرها صراحة ولكنه يضع حولها ضروبا من التحفظات تؤكد شكوكه بصحتها من ذلك قوله : « وزعم لي بختيشوع بن جبريل أنه عاين الخرق الذي في إبرة العقرب ، وإن كان صادقا كما قال فما في الأرض أَحدٌّ أَحدَّ بصرا منه ، وإنه لبعيد ، وما هو بمستنكر [٧٠] ، ويورد أحيانا خبرا يشك في صحة تعليله فيتحفظ عليه ثم يورد تعليلا له مقبولا عقليا ، وهذا اللون من الشك لايعطي النتائج السلبية برفض الخبر ، بل يعطى النتيجة الإيجابية بقبول الخبر مع تصحيح التعليل » . ومن ذلك إيراده الخبر التالي : « ولايزال بعض من يدّعي العلم يزعم أن الدَبَا يريد الخضرة ودونها النهر الجاري فيصير بعضه جسرا لبعض حتى يعبر الى الخضرة وأن ذلك حيله منها » ثم يعلن تحفظه على الخبر ويورد تعليلا منطقيا للحادثة موطن الخبر يُغايرُ التعليل المرفوض فيقول : « وليس ذلك كما قال ، ولكن الزحف الأول من الدَبا يريد الخضرة فلا يستطيعها الا بالعبور اليها ، فإذا صارت تلك القطعة فوق الماء طافية صارت تلك لعمرى أرضا للزحف الثاني الذي يريد الخضرة فإن سمّوا ذلك جسرا استقام ، فأما أن يكون الزحف الأول مهّد للثاني ومكّن له وآثره بالكفاية فهذا ما لايعرف » [٧١] .

٩ ـ رد الجاحظ لكثير من الأخبار التي تعزى لأرسطو بسبب شكه بصحتها :

يكثر الجاحظ من الاستشهاد بأقوال وأخبار معزوة إلى الفيلسوف اليوناني أرسطو الملقب عند العرب بصاحب المنطق وواردة في كتابه « تاريخ الحيوان » ، ويرد بعضها أو يتحفظ عليه لعلل يقرنها بكل خبر ، ومثل هذه الروايات المردودة كثيرة في كتاب الجاحظ ، ولكننا نمثل لها بنماذج محدودة ، منها قول الجاحظ : « وقال صاحب المنطق : ويكون بالبلدة التي تسمى باليونان (طبقون) حية صغيرة شديدة اللدغ ، إلا أن تُعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك ، ولم أفهم هذا ولم كان ذلك ؟ » [٧٢] ، ومثله قوله : « فأما زعمه أن السمكة لاتبتلع شيئا من الطعم الا ببعض الماء ، فأي عيان دلّ على هذا ؟ » [٧٣] . ومثل ذلك أيضاً الخبر التالي ثم تعليقه عليه ، فقد أورد الجاحظ الخبر التالي : « وزعم صاحب المنطق أن أصنافا أُخَرَ من السباع المتزاوجات المتلاقحات مع اختلاف الجنس والصور معروفة النتاج مثل الذئاب تسفد الكلاب ،

---

٧٠ ـ الحيوان : ٥/ ٣٥٧

٧١ ـ الحيوان : ٥ / ٥٦٢

٧٢ ـ الحيوان : ٤ / ٢٢٧

٧٣ ـ الحيوان : ٥ / ٥٤١

في أرض روميّة قال : وتتولد أيضاً كلاب سلوقية من ثعالب وكلاب »[٧٤] . ويعلق على ذلك محاولا نفي هذه الدعوى عن أرسطو ، لتصوره أن مثلها لايجوز عليه لأنها غير ثابته علميا ، ثم يؤكد رفضه للدعوى إن صح أن أرسطو كان قالها : « وما نظن بمثله أن يخلد على نفسه في الكتب شهادات لايحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقَها أشباهه من العلماء ، وما عندنا في معرفة ماادعى إلا هذا القول »[٧٥] .

١٠ - رده لقصائد وأبيات بتعليلات مختلفة :

ويتعرض الجاحظ لعدد من القصائد يشك في صحة نسبتها إلى من نسبت إليهم ويرجح آن تكون منحولة ، لشكه العلمي في بيت أو أكثر من أبياتها ، ويرجح أنها منحولة . والحديث عن الانتحال قديم في النقد القديم وفي النقد الحديث ، وقد قال الجاحظ نفسه عنه : « ولقد ولّدوا على لسان خلف الأحمر والأصمعي أرجازا كثيرة ، فما ظنك بتوليدهم على ألسنة القدماء »[٧٦] . ولهذا كان يعرض لبعض القصائد بالنقد ويثبت أنها لغير من نسبت له مستندا الى حجج موضوعية ، من ذلك تعليقه على بيت للأفوه الأودي هو :

كشهاب القذف يرميكم به فارس في كفه للحرب نار[٧٧]

فيقول : « وأما ما رويتم من شعر الأفوه الأودي فلعَمْري إنه لجاهلي ، وما وجدنا أحدا من الرواة يشك في أن القصيدة مصنوعة ، وبعد فمن أين علم الأفوه أن الشهب التي يراها إنما هي قذف ورجم ، وهو جاهلي ، ولم يدّع هذا قط أحد إلا المسلمون ، فهذا دليل على أن القصيدة مصنوعة »[٧٨] . لقد ناقش الجاحظ صحة نسبة القصيدة بمنطق الناقد الذي يمحص المعنى ويثبت أن المعنى الذي يشتمل عليه البيت هو معنى إسلامي ولم يسبق لأحد قبل الإسلام أن أتى به ؛ الأمر الذي يؤكد له أن القصيدة مصنوعة وأنها ليست لمن نسبت إليه ، ويعزز أقواله بآراء آخرين من النقاد وصلوا إلى ماوصل إليه ، وفي قصيدة أخرى منسوبة ليزيد بن ناجية السعدي يرد الجاحظ هذه النسبة وينسب صنعتها إلى الراوي نفسه وهو ابن أبي كريمة فيقول عن ذلك : « ونحن نظن أن هذه القصيدة من توليد ابن أبي كريمة »[٧٩] .

---

٧٤ - الحيوان : ١ / ١٨٣
٧٥ - الحيوان : ١ / ١٨٤
٧٦ - الحيوان : ٤ / ١٨١
٧٧ - الحيوان : ٦ / ٢٧٥
٧٨ - الحيوان : ٦ / ٢٨٠
٧٩ - الحيوان : ٥ / ٣٣٤

وفي قصائد أخرى يشك الجاحظ بنسبتها إلى أصحابها ولكن دون حسم لهذا الشك لأنه لم يترجح لديه صدق النسبة من كذبها ، ولذا نجده يروي القصيدة منسوبة لشخص ويشفع ذلك بقوله « إن كان قالها » ومن ذلك قوله : « وقال أمية (إن كان قالها) :

ربما تجزع النفوس من الأمـ ... مر له فرجة كحل العقال [٨٠]

ومثله أيضا قوله : « وقال تأبط شرا (إن كان قالها) :

شامس في القر حتى اذا ما ... ذكت الشعرى فبرد وظل [٨١]

وقد يروى نصا منسوبا لقائل ثم يعقب على ذلك بقوله : « أو غيره » مدللا على شكه بتلك النسبة ومثل ذلك قوله « وقال المجنون أو غيره » :

ولو لم يُهْجني الرائحون لهاجني ... حمائم ورق في الديار وقوع [٨٢]

ومثله قوله : (وقال زهير أو غيره)

إن الرزية لا رزية مثلها ... ماتبتغي غطفان حين أضلت [٨٣]

١١ ـ الشك الايجابي :

إذا كان الشك هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحداهما على الآخر ، كما يقول المنطقيون ، فإن استخدام الشك منهجا للبحث يقتضي ترجيح أحد النقيضين على الآخر بهدف الوصول إلى الحقيقة سواء أكان هذا الترجيح إلى ناحية السلب أو إلى ناحية الايجاب .

والنماذج التي قدمت في الجانب التطبيقي من هذا البحث كانت تمثل الناحية السلبية من هذا المنهج ، أي جانب الهدم فقط ، إذ كان الجاحظ يعرض بالمناقشة الى الفكرة التي يحوطها الشك ثم ينتهي الى تكذيبها أو تسجيل تحفظه عليها . ولكن التزام هذا الجانب السلبي لم يكن مطردا دائما في استخدام الجاحظ للشك ، إذ كان أحيانا يستخدم الشك في جانبه الإيجابي الذي ينتهي به إلى تصديق القضية التي راوده الشك حولها ، أو ينتهي به الى تصويب جوانب منها تدفع عنها مظنة الشك ، ومن أمثلة هذا اللون من الشك الإيجابي تصديقه لفكرة لم يكن قابلا لها من قبل ، ولكنه صدقها بعد أن أثبتتها التجربة ، فهو يروي عن نفسه الحكاية التالية : « ولقد أردت أن أغرس

---

٨٠ ـ الحيوان : ٣ / ٤٩
٨١ ـ الحيوان : ٣ / ٦٨
٨٢ ـ الحيوان : ٣ / ٢٠٧
٨٣ ـ الحيوان : ٣ / ٤٩٠

في داري أراكـة ، فقالو لي : إن الأراكة إنما تنبت من حب الأراك ، يُغرس في جوف طين في قواصر ، ويسقى الماء أياما ، فإذا نبت الحب وظهر نباته فوق الطين ، وضعت القوصرة كما هي في جوف الأرض ، ولكنها إلى أن تصير في جوف الأرض فإن الذرّ يطالبها مطالبة شديدة ، وإن لم تحفظ منها بالليل والنهار أفسدتها . فعمدت الى منارات من صفر من هذه المسارج ، وهي في غاية الملاسة واللين ، فكنت أضع القوصرة على الترس الذي فوق العمود الأملس فأجد فيها الذرّ الكثير ، فكنت أنقل المنارة من مكان الى مكان ، فما أفلح ذلك الحب » [٨٤] . ومثل ذلك رجوع الجاحظ عن ظنّ كان واقرا في نفسه حول ملازمة الرائحة للطعم في المأكولات حتى استوثق من ذلك ممن جرّب ذلك ، ويقول في هذا الشأن : « وريح العقارب إذا شويت مثل ريح الجراد . وما زلت أظن أن الطعم أبدا يتبع الرائحة حتى حقق ذلك عندي بعض من يأكلها مشوية ونيّة ، أنه ليس بينها وبين الجراد الأعرابي السمين فرق » [٨٥] .

وهناك قضايا عمد فيها الجاحظ الى تصويب آراء ربما اقتضت ، إذا لم تصوّب ، أن تُسْلمَ إلى نتائج خاطئه . أما طريقتة في هذا التصويب فقد كان يلجأ فيها إلى تقدير احتمال غلط الرواة في النقل الدقيق لجزء من الرواية يُفْضي ، إذا لم صُوّب ، إلى تغيير دلالة الخبر . لقد استخدم الجاحظ هذه الطريقة لدفع شكوك أحاطت بكعب الأحبار [٨٦] لدى كثير من المؤرخين من جرّاء جملة ترد في مطالع أقواله ويرى الجاحظ أنها لم ترد لدى الرواة بشكلها الصحيح ، وأنها إذا لم تصحح فانها قد توحي بشكوك حول الرجل ، ثم يضع لهاتصويبا يقدر أنه هو الصحيح ، ويبدو أن دافعه الى هذا الدفاع هو حسن ظنه بالرجل . يقول الجاحظ في معرض هذا الدفاع : « وأنا أظن أن كثيرا مما يحكي عن كعب أنه قال : مكتوب في التوراة ، أنه انما قال : نجد في الكتب ، وهـو إنما يعني كتب الأنبياء ، والذي يتوارثونه من كتب سليمان ، وما في كتبهم من مثل كتب أشعياء وغيره ، والذي يروون عنه في صفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأشباه ذلك ، فإن كانـوا صدقـوا عليـه ، وكـان الشيـخ لايضـع الأخبـار ، فما كان وجـه كلامـه عندنا إلا على

٨٤ـ الحيوان : ٥ / ٤١٣

٨٥ـ الحيوان : ٥ / ٣٥٦

٨٦ـ كعب الاحبار : كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري ، مخضرم جاهلية وإسلام ، كان من كبار علماء اليهود في اليمن وأسلم في زمن أبي بكر وقدم المدينة في زمن عمر (رضي الله عنهما) وأخذ عنه الصحابة كثيرا من أخبار الأمم الماضية وأخذ هو عن الصحابة من الكتاب والسنة وخرج الى الشام وتوفى في حمص ـ أنظر الاعلام ٥/ ٢٢٨

ماقلت »[٨٧] . لقد وضع الجاحظ قبل أن يثبت تصحيحه للمقولة احترازات يجعلها سنداً لحجته وهي افتراض صدق الرواة الناقلين عنه من جهة ، وصدق كعب الأخبار وأنه لايضع الأخبار .

وفي صدد الحديث عن الشك الايجابي لدى الجاحظ نلاحظ أن استخدامه لهذا اللون من الشك كان محدوداً وأن الشك السلبي كان هو الغالب في معظم ما يخضع لمنهج الشك عنده ، ولعل تعليل ذلك يكمن في ما كان الجاحظ قد أورده حين جعل لليقين صورة واحدة وللشك صورا متعددة ، لأن الشك الإيجابي هو وحده الذي يفضي الى اليقين الايجابي - إذا صحت التسمية - وبالتالي فإن صور الشك الإيجابي ستكون محدودة بالنسبة الى الشك السلبي الذي تتجلى نتائجه في صور متعددة .

وأخيراً - . . . فإن الجاحظ يعتبر من الرواد الذين استخدموا منهج الشك في دراستهم العلمية عن وعي بملامح هذا المنهج وحدوده ، سواء في جوانبه النظرية أو العملية ، ولم يكن الجاحظ وحيداً في هذا الاتجاه ، بل وجد كثير من علماء المسلمين نهجوا النهج نفسه ، وقد أشرنا إلى بعضهم في مواضعه من هذا البحث ، كما يجب أن لاننسى جهود علماء الحديث في تأصيل منهج الشك في دراساتهم لعلم الحديث ، ويكفيهم فخراً أن علم الجرح والتعديل ، وهو مالم تعرفه حضارة من الحضارات الإنسانية ، يقوم بكامله على منهج الشك .

كما أننا نؤكد في ختام هذا البحث أن الغربيين الذين مافتئوا يحاولون استلاب معظم ماكان لدينا من خصائص وإبداعات ، ونحلها لأنفسهم ، قد آن لهم ، وقد أصبح العالم متواصلا بفعل التقدم التكنولوجي ، وأصبحت المعلومات ميسرة لطالبيها ، أن يرجعوا الى الإنصاف فيذكروا بكل الصدق ما لأمتنا من إبداعات ادّعَوها من غير حق ، لأنفسهم .

---

٨٧ - الحيوان : ٢٠٢

كشاف المصادر والمراجع

١ ـ الأعلام : خير الدين الزركلي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٨٤

٢ ـ تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى : رينيه ديكارت ـ دار عويدات ـ بيروت ـ ١٩٨٢

٣ ـ الحيوان : الجاحظ ـ ت / عبدالسلام هارون ـ دار التراث ـ بيروت ـ د. ت

٤ ـ الرسالة (مجلة) : (الإصدار الأول) ـ أحمد حسن الزيات .

٥ ـ صحيح البخاري (الجامع الصحيح) : الإمام البخاري ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ١٩٨٥

٦ ـ صحيح مسلم : الإمام مسلم بن الحجاج ـ دار المعرفة ـ لبنان ـ د . ت

٧ ـ علم التفسير ـ تأسيس العلوم عند العرب : ـ د . ياسين عريبي ـ أمانة التعليم ـ طرابلس ـ ليبيا

٨ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ابن أبي أصيبعة ـ دار الحياة ـ بيروت ـ د . ت

٩ ـ فلاسفه أوروبيون ـ من ديكارت الى برغسون : د . موسى الموسوي ـ دار المسيرة ـ بيروت ـ ١٩٨٠

١٠ ـ قصة الفلسفة الحديثة : أحمد أمين ود . زكي نجيب محمود ـ النهضة المصرية ـ ١٩٨٣

١١ ـ مبادىء الفلسفة : رينيه ديكارت ـ بيروت ـ د . ت

١٢ ـ مقال عن المنهج : رينيه ديكارت ـ الهيئة المصرية العامة ـ ١٩٨٥

١٣ ـ المنقذ من الضلال ـ الإمام الغزالي : ت / عبدالحليم محمود ـ دار الكتب الحديثة بمصر ـ د. ت

١٤ ـ المناظر : ابن الهيثم : ت / عبدالحميد صبرة ـ الكويت ١٩٨٣

١٥ ـ المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت : محمود حمدى زقزوق ـ مكتبة الأنجلو ـ مصر ـ ١٩٨١

١٦ ـ الموجز في الأدب العربي : عبدالرحمن الباشا وآخرون

١٧ ـ الفهرست : ابن النديم ـ تحقيق ناهد عباس عثمان ـ دار قطري بن الفجاءة ـ قطر ـ ١٩٨٥ .

١٨ ـ في الفلسفة الاسلامية ، منهج وتطبيقه : د. ابراهيم مدكور ـ دار المعارف ـ مصر ١٩٨٣ .

١٩ ـ قصة الفلسفة الحديثة : أحمد أمين ود. زكي نجيب محمود ـ النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٨٣ .

٢٠ ـ مبادىء الفلسفة : رينيه ديكارت ـ بيروت ـ د. ت

٢١ ـ معجم الأدباء : ياقوت ـ دار المستشرق ـ بيروت ـ د. ت

٢٢ ـ المعجم الفلسفي : مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ ١٩٧٩ .

٢٣ ـ مقال عن المنهج : رينيه ديكارت ـ تحقيق د. محمود الخضيري ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ .

٢٤ ـ مقدمة ابن خلدون ـ تحقيق حجر عاصي ـ دار مكتبة الهلال ـ ١٩٨٦ .
٢٥ ـ الملل والنحل ـ الشهرستاني ـ تحقيق محمد بن فتح الله بدران ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ .
٢٦ ـ المنقذ من الضلال : الإمام الغزالي ـ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ـ دار الكتب الحديثة ـ مصر ـ د . ت .
٢٧ ـ الموسوعة الفلسفية : معهد الإنماء العربي ـ بيروت ـ ١٩٨٦ .
٢٨ ـ الموسوعة الفلسفية المختصرة : نقلها عن الانجليزية فؤاد كامل وآخرون ـ بإشراف د. زكي نجيب محمود ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ .
٢٩ ـ المناظر : ابن الهيثم ـ تحقيق د. عبد الحميد صبره ـ الكويت ـ ١٩٨٣ .
٣٠ ـ المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت : د. محمود حمدي زقزوق ـ مكتبة الانجلو القاهرة ـ ١٩٨١
٣١ ـ الموجز في الأدب العربي : عبد الرحمن الباشا وآخرون ـ حلب ـ ١٩٥٤
٣٢ ـ وفيات الأعيان ـ : ابن خلكان ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ١٩٧٠ .